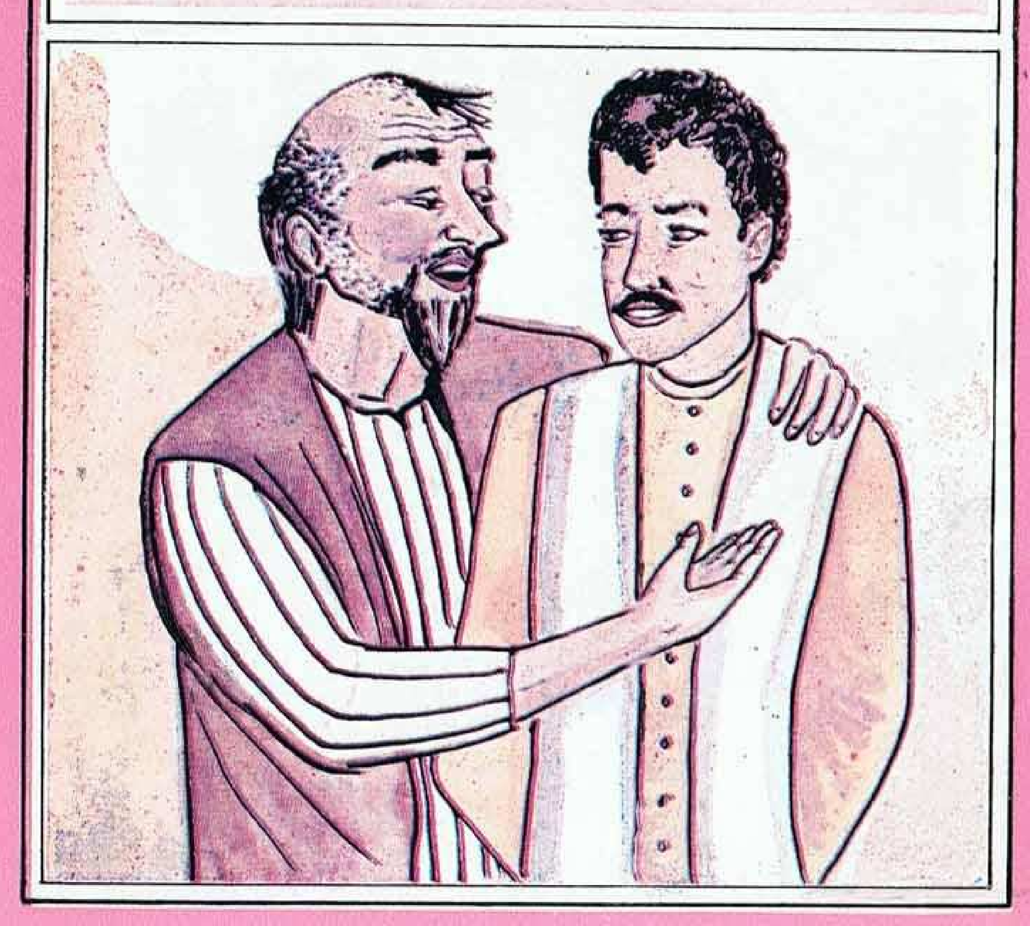
سلسلة بخلاء الجاحظ

للفتيان

هذا الشبل من ذاك الأسد

"خالد بن يزيد" وولده!!

محمد علي قطب





٣٨٧٤
بيروت - لبنان

الجاحظ : أديب العربية بلا منازع ، وسيد الكلمة غرف من بحر علم الأوائل ، واطلع على الكثير ، وحفظ حفظاً هائلاً حتى لكأنه خزانة علم ومعرفة .

كان ذكي الفؤاد لماحاً ، خفيف الروح ، حلو الدُّعابة ، حاضر البديهة سريع الخاطر .

قلمه كأنه ريشة رسام فنَّان مبدع ، يرسُم الأشخاص بدقة متناهية ، في وجوههم وأشكالهم وتحركاتهم وانفعالاتهم ودخائل نفوسهم فلا يستعصي عليه أحد ...

ولقد اتخذ من نقيصة البخل عند بعض الناس مادة سخرية وتندر فجلَّى وأبدع ...

بينما أنت تقرأ قصة بخيل على لسان "الجاحظ" وقلمه تحسُّ أن كل كلمة أو عبارة تقطر نقداً لاذعاً مريراً . ثم تنعكس على صفحة قلبك ونفسك ضحكة ما تلبث أن تظهر على فمك إبتسامة .. ، أو قهقهة يضج بها صدرك ...

كانت مدينة "مرو" بالنسبة له مسرح دراسة وميدان إختبار فركز على أهلها مجهره وريشته وقلمه ، فأثرى المكتبة العربية بتراث من الأدب الرفيع .

ونحن - من خلال هذه القصص - نزوِّي لك من جديد طرفاً من طرفه ، لعل فيها الزاد الروحي والفكري الذي يلزمك .

دار القلم

حكايات "بخلاء الجاحظ" للفتيان

هذا الشبل من ذاك الأسد

"خالد بن يزيد" وولده!!

محمد علي قطب

دار القلم

ص.ب : ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

ثروَةُ «خالد»

كان «خالد بن يزيد» من أشْهر أصْحاب الثروات، صاحب مالٍ وفير، وأراضٍ شاسِعة خِصْبة، وعقارات وأبْنِيَةٍ كثيرة.

ولكنّه بالإضافة إلى ذلك كان - أيضاً - من أشْهر البُخلاء، شديد الحُبِّ لِلمَال، شديد الحرْصِ عليه، يحافِظُ على أقلّ القليل، لِيَنْمو ويكثر.

ولعلَّ هذا الْحِرْص من أهم أسباب الغنى الذي اشتهر به «خالد».

أساليب جهنَّمِيَّة!!!

وقد تسألُني - يا بُني العزيز -: كيْف جَمَع «خالد» هذا المال وتلْك الثروة؟ هل كان تاجِراً ناجحاً؟ أو كان وارثاً عن أبيه مالاً؟

لا هذا ولا ذاك..

بل جَمَعَ هذا المال وتلْك الثروة الطائلة من خلال ما كان يَتَفَتّق عنه ذهنه من حيلةٍ وخداع.

ولقد رُوي في ذلك أساليب جهنّميّة لا يُمْكن أن تَخْطُر على بال إنسان.

قيل ـ مثلاً ـ أنَّه كان يَرْبط ساقَهُ أو ذراعهُ ربْطاً شديداً مُحْكَماً منذ المساء، ويبيت على ذلك حتى الصَّباح.. فَتَتورَّم ذراعهُ أو ساقُهُ...

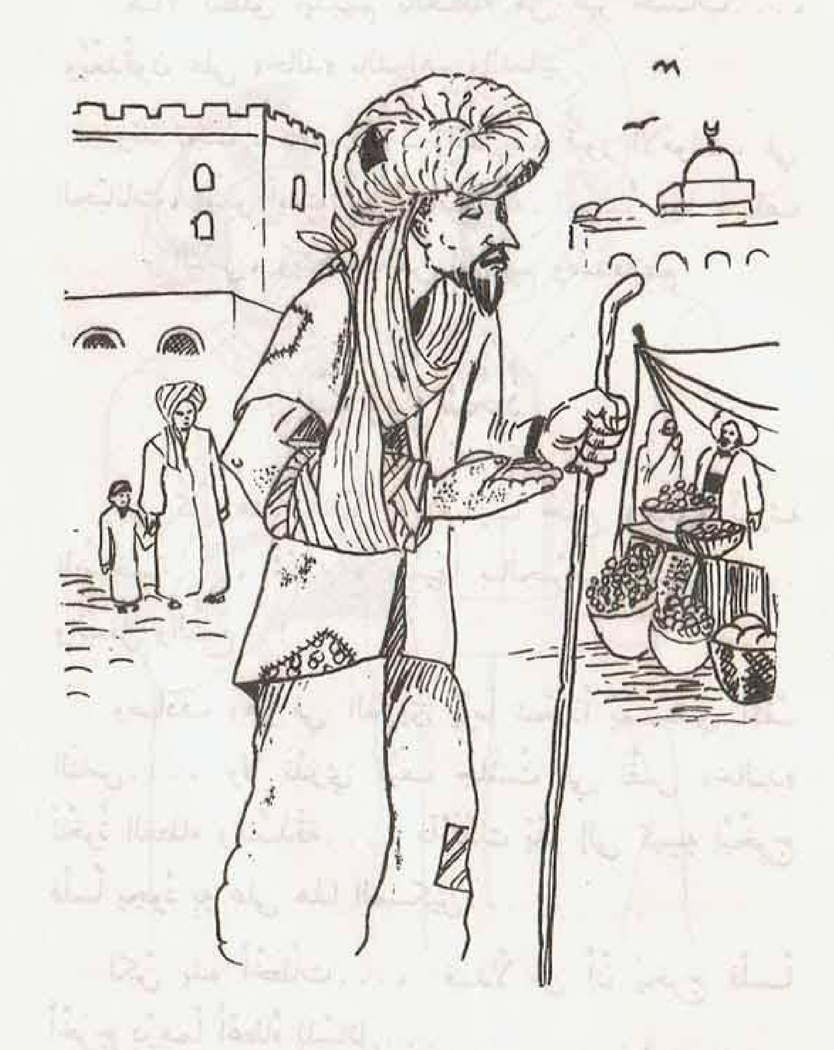
ثم يَقُومُ فَيَمْسَحُ الوَرَم بالصابُون والزَّيْت مَسْحاً خفيفاً ويلفُّه بخرقةٍ قديمة...، ويخرج إلى الناس مُتَسوِّلاً...، فكان الذي يراهُ يعتقد أنَّه مريضٌ بمَرَضٍ عُضال...، فيتصدَّق عليه.

أَوْ يتّبع طريقةً أُخْرى..!!

إِذْ يَحْمل في إحدى كَفَّيْه دُرَيْهماتٍ قليلة، ويَمْشي يسأل النَّاس... مُدَّعياً أنَّه كان في طريقِهِ لشراءِ ثَوْبٍ وقد ضاعَتْ فُلُوسُهُ...، بعيْنٍ دامعةٍ، وصَوْتٍ تخنقُهُ العبرات، وذِلَّة آنْكسار!!!، فيظُنُّ الناسُ فيه الصِّدْق فَيُعْطُونَهُ، ويحثّ بعضهم بَعْضاً على معونته وإسْعافِهِ!!!

وقد يَرْتدي ثياباً تُوحي بالْوقار والجلال، وقد وضَعَ على رأسه عِمامَةً ضَخْمَةً، وأَرْخى لحيَتَهُ، فَيَبْدو وكأنَّه من العُلماء الأجلاّء...

ثم يتعرَّضُ للناس...، ولكن بهدوءٍ...، وصوْتٍ خفيض، فيظنُّون فيه الحاجة مع الحرْص على الكرامة، وأنَّه من الذين تُحْسبُهُم أغْنياءَ من التَّعفُّف...



ويخرج إلى الناس مُتَسوِّلاً...، فكان الذي يراهُ يعتقد أنَّه مريضٌ بمَرَضٍ عُضال...، فيتصدَّق عليه.

هُنا؛ تَنطلق أيديهم بالعطاء من غَيْر حساب...، ويُغْدِقُون على «خالد» بالدراهم والدنانير.

وقد تجده - ذات يَوْم - واقفاً عند قُبُور الأَمْوات، في الجبّانات، يَتْلو آياتٍ من كتاب الله، يَسْتدِرُّ بها عَطْف النّاس، وَيتكسَّبُ من أموالهم وصَدَقاتِهِم

بَيْنَهُ وبَيْنَ شَحَّاذْ

من كُلّ هذه الْحِيَل والأساليب جَمَعَ «خالد» ثَرْوَته الضَّخْمة...، ثُمّ راح يُنمّيها بالْحِرْص الشديد.. والْبُخْل والشُّحّ..!

وصادَفَ وهُوَ في الطريق يَوْماً شحّاذاً يَسْتَجْدي أكُفَّ النّاس...، ولا تَدْري كَيْف جاشَتْ في نَفْس «خالد» نَخْوةُ العطاء والصَّدَقَة...، فامْتَدَّت يَدُهُ إلى كيسِهِ لِيُخْرِج فلْساً يجودُ بِهِ على هذا المسكين...

لكنّ يده أَخْطَأَت...، فبدلاً من أنْ يُخرج فلْساً أخْرَج دِرْهماً أَعْطاهُ لِلسّائل...

وما كاد «خالد» يلمَحُ الدِّرْهَمَ في يد الشَّحاذِ السّائل حتى كاد يُجَنّ، وانْتَفض كأنّما لَسَعَتْهُ عَقرب..،



ثم يتعرَّضُ للناس..، ولكن بهدوءٍ...، وصوْتٍ خفيض، فيظُنُّون فيه الحاجة مع الحرْص على الكرامة، وأنَّه من الذين تَحْسَبُهُمْ أغنياء من التَّعفُّف...

وبُسرعةٍ خاطفةٍ آنْقَضَّ على الدرهم فآسْتَرْجَعَهُ وآسْتَبْدله بِفلْسٍ . . .

في تلْك الأثناء . . . صَدَرت عن الشَّحّاذ المسكين صَرْخَةُ رُعْبٍ وخوْف . . . ، فآجتَمَع الناس على «خـالدٍ» وعلى الشحّاذ . . . ، وهُم يظنّون أن في الأمرِ سُوءاً . . .

الحوارُ الطَّريف . . .

قال أَحَدُهم :

ـ ماذا في الأمر يا «خالد» !؟

قال :

ـ لقد كان في نيَّتي أن أتَصَدَّق على هذا الشحّـاذ بِفلسٍ ولكنّي أخْطَأْتُ وأعْطيتُهُ دِرْهماً بدلاً من ذلك . . . ، وهذه مجازَفَة . . ، وحين حاولتُ آسْترجاع الـدّرهم رُوِّع الشحّاذ . . . فَصَرخ . . ! .

فَـنَـظَرَ النـاسُ بَـعْـضُـهم إلـى بَعْضٍ مُـتَـعـجّبـين ، مَشْدُوهين . . . مُتحيِّرين ، ثم قال لِـ «خالد» مُحاوِرُهُ :

ـ إن آسْترجاع الصَّدَقة حرامٌ يا «خالد» . . . ، وهذا لا يحلُّ لَكَ . . !! ولقد قَهَرْت نَفْس هذا المسكين . . . ، وماذا لو أنّك أبْقيْتَ لهُ الدِّرْهم فإنَّه أكْثَرُ نَفْعاً وأجْراً !!

فصَرَخ «خالد» في وَجْه صاحِبِه الذي يُحاوِرُهُ ، وفي وُجُوهِ الحاضرين جميعاً ، وقال :

ـ وَيْلٌ لكم . . . لقد جَمَعْتُ مالي هذا بعقْلي وكَدّي وجُهْدي ، وليْس بعقولِكُم وكدِّكم وجُهْدكم أنْتُم . . . ، فأنا أحْرصُ عَلَيْه وأدْرى بِهِ . . .

ثم ماذا تعرفُون عَنْ الشحّاذين ونوعيَّاتهم . . ؟ ، فهذا مثلاً من الذين يَرْضُون بـالْفَلْس ويحتاجـونه ، وليس من الذين يطلبون الدِّرْهم ويحتاجونه . . . ، ولو أنني أعْطَيْته الدِّرْهَمَ لرَدَّهُ إليَّ . . . ورفَضَهُ . . .

إنصـرفُـوا عَنّي يـا قـوْم . . . ، ووفّـروا على أنفسكم النّصيحة !!!

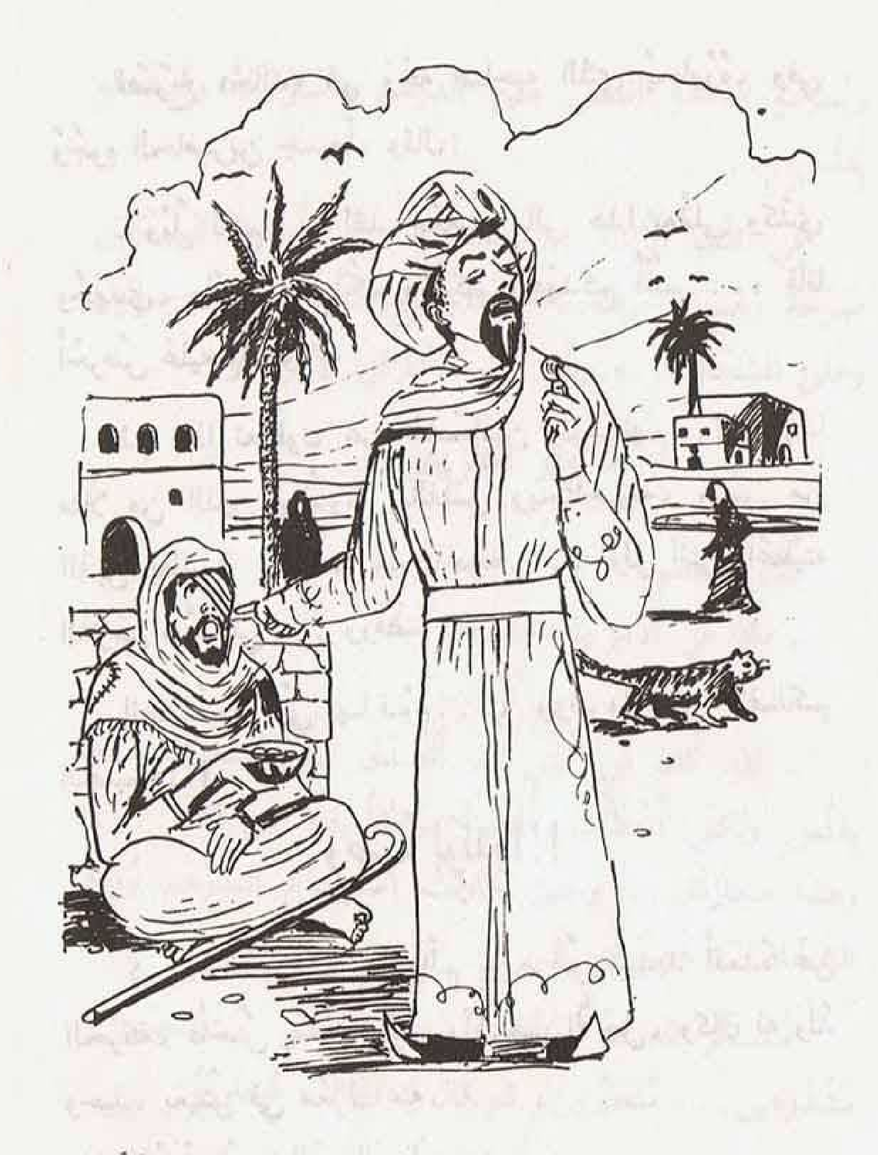
وَصِيَّتُهُ لِوَلَدِهِ !!!

كبِرَ «خالدٌ» وشاخَ ، وألَم بِهِ مرضٌ شديد أقعَدَهُ عن الحركة ، فَأحسَّ بِدُنُوِّ الموْت وآقْتِراب الأجَل ، وكان له وَلَدٌ وحيد ، يعيشُ في معْزِل عنه . . .

فاسْتَدْعاهُ «خالدٌ» إليْه لِيُوصيه ،

وكان ممّا قاله لهُ في وصيَّتِهِ :

ـ يا بُنَيَّ . . .



ثم ماذا تعرفُونَ عن الشحّاذين ونوعيّاتهم.؟، فهذا مَثلاً من الذين يَرْضُون بالْفَلس ويحتاجونه، وليس من الذين يطلبون الدِّرْهم ويحتاجونه...، ولو أنني أعْطَيْتُه الدِّرْهَم لِرَدَّهُ إليَّ ورفضَهُ...

لقد تركْتُ لَكَ مالاً إن حَفِظْتَهُ يَحْفظك، وإن ضيَّعْتَهُ ضَيَّعَكَ، وقد عَلَّمْتَكَ من فنُون التَّدْبير والتقتير الكثير، وهُوَ خير لك من كُلّ المال الذي تركته لك...

فإذا لم يكُن في نَفْسك الدافع لحفْظِ هذا المال فإنّه لَنْ يَنفَعْك شيْء بعد ذلك.

لقد عاشَرْتُ كُل الناس، وصاحَبْتُ صاحب كُلِّ صَنْعَةٍ، وعملْت في كل شيْء، لم أترك شيئاً دون أن يكُون لي فيه ما أنْتفِعُ به...، ومن كل هذا الجهد والسَّهر والتَّعب جَمَعْتُ هذا المال ديناراً بجانب دينار...

ـ وإنّني لو كنت أعلم أنَّ لك سِعَةً من الصَّدْر وبِكَ الحِلْمَ ما بك لأخْبَرْتُكَ بإسْرار ذلك الكثير...

فقال الإبْنُ:

ـ أنْتَ تعرف ـ أيها الوالد العزيز ـ ما ربَّيْتني عَلَيْه...

وتعْرِف مَبْلَغَ حِرْصي وآجْتهادي وذكائي...، وتعرف أن نصائحك لي وعُلُومك لن تضيعَ سُدىً ولن تذهب هباءً...، فلا تَبْخَلْ عليَّ بها، وهي عندي أغْلَى من كُلِّ الثروات والأمْوال....

قال الأبُ «خالد»:

- إنّني أعِـدُك إنْ قُمْتُ من رَقْـدتي هـذه ومـرضي بالسلامة لأعَلِّمنَّك من الفنون والصّناعات والأسْرار ما تنتفع به العُمْر كُلّه. . .

وأضاف «خالد» يقول:

- هُناك نصيحةٌ أريدُك أن تعيها حق الْوعيْ، وتفهمها حق الفهم، وأن تعمل بِوَحْيها. . .

فقال الابن:

- سَمْعـاً وطاعـة. . . قُلْ مـا تُريـد فإنني كُلّي آذان صاغية. . . قال «خالد»:

- إنني أعْلَمُ - يا بُنيَّ - أنّك ما زلْتَ فتىً فيك تَسرُّع، ولسانك يَغْلُبُ عَقْلك، ومـا زلْت لم تَصْقلْك التَّجربـة، وأخوفُ ما أخافهُ عليك حُسْنُ ظَنّك بالناس. . .، إيّاك!!! إيّـاك!!! فإنهم عيـون عَلَيْك تُراقبُك وتتعـرَّفُ مـوْضِـعَ سِرِّك. . .

إسْمَع. . . لهذه التجربة الخاصّة. . .

لقدْ غلبتني ذات يَـوْم شَهْـوتي. . .، وذهبْتُ لكي أطفىء ظَمأَ هذه الشّهْوة العارمة المتلظّية. . .، ولمّا أخرجْتُ الـدّرهم لأقْضي به الشهـوة وقع نـظري على آسْم الله المكتوب عليه. . .، فعـرفْتُ مقدار خـطيئتي وقُلْتُ في

نفْسي: كيْف أفْعل الحرام بشيْء عليه إسْم الله تعالى؟!! إنّني إذاً لَمِنَ الخاسرين. . .

وَبَعـدهـا مـا كُنْت أُخْـرجُ دِرْهمـاً في يـوْمي، وفي حاجتي، إلاّ إذا كان لِغَيْر شَهْوةِ حرام. . .

هـذه نصيحتي لَـكَ فـأسمعْهـا وآحـفَـظْهـا وكُنْ من الذّاكرين.

الْوَلَدُ سِرُّ أبيه. . .

وفعلاً - عزيزي القارىء - كان ابن «خالد» كما يقول المثل: [هذا الشِّبْل من ذاك الأسد]!!!!

فَبعد أيّام ليست بالكثيرة من مـرض «خالـد»، وقد اشْتَدَّت به الْعِلّة. . .، ماتَ. . .

وقام آبْنُهُ على تَجْهيزه وتكْفينِه وَدَفْنِه. .

لقد غَسَّله بنفسه. . .، ومن ماءِ البئر التي في الدار. . .، دُونَ أن يُسَخِّنَها. . .،

ثُمّ لفّه ببعْضِ الْخِرَق البالية بَدَلاً من الْكَفن. . .، ثم آحْتَفَر له قَبْراً في فناء البيْت دفَنَهُ فيه، ولم يَبْنِ على قَبْرِهِ ضريحاً. . !

وبينما هُو يُنقِّب في أنحاء البيْتِ وَجَدَ في إحدى الغُرَفِ جَرَّةً مُعلَّقةً في السَّقْف، فسأل خالته - آمرأة أبيه - عن هذه الجرَّة وما فيها؟؟

فقالت: هي فارِغَةٌ الآن..!.

قال: وماذا كان فيها من قَبْل؟

فقالت: كان يملؤُها بالسَّمْن...

قال: سَمْن!!؟؟ وماذا كان يَصْنع بهذا السَّمْن؟!! غَفر الله له على هذا الإسْراف...

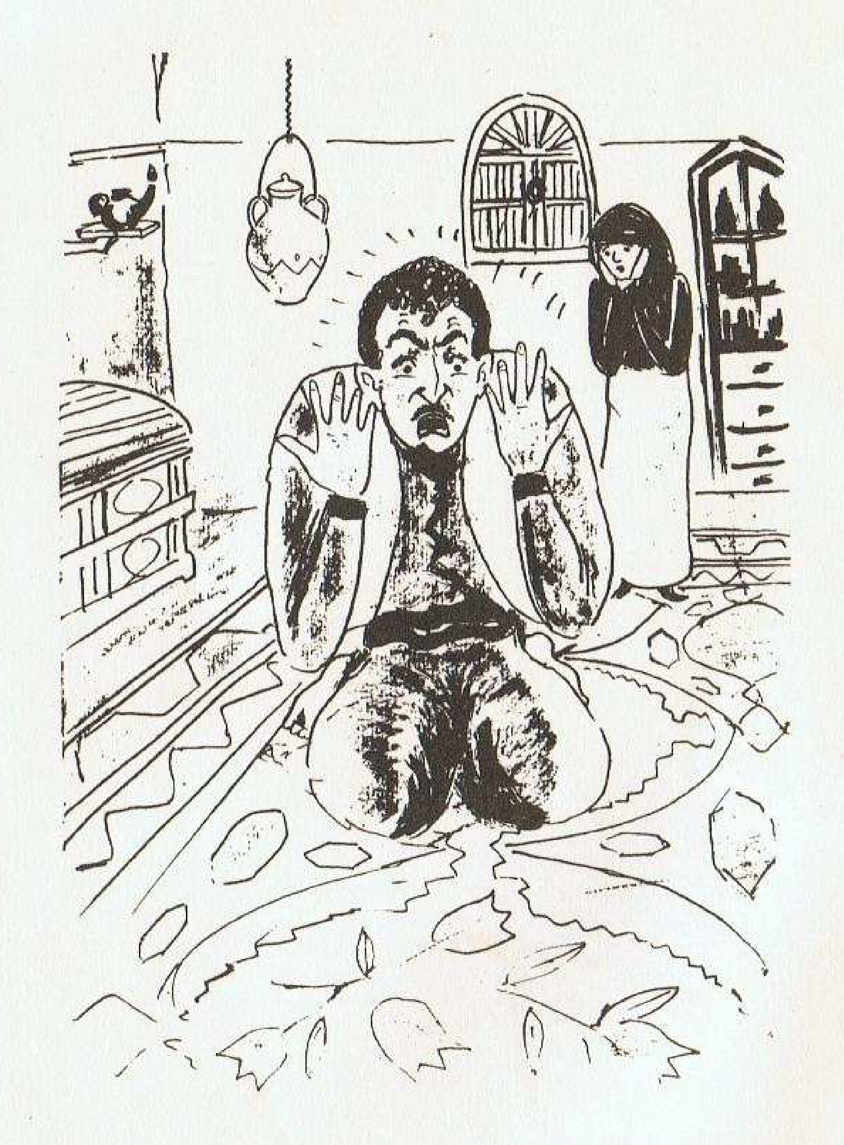
قالت: كان في فَصْل الشتاء رُبَّما وُضَعَ دقيقاً (طحيناً) في الطَّبْخ وقد يَخْلُطُهُ ببعْض السَّمْن...

فَلَطَمَ الإبن وَجْهَهُ بِكِلْتا يَدَيْه، وصَرخ مَتَفَجِّعاً باكياً، قائلاً:

- يا وَيْلَتاه... سَمْنٌ ودقيق... وَيأْتي بعد ذلك الْعَسَل!!!،

وهُما ما أضاعا الناس، وبَدَّدا أمْوالهم وأذْهَبَ دراهمهم ودنانيرهم... وأفْقَرَهُم...

والله الذي لا إله إلاّ هُو لوْلا خَوْفي على ثَمَنِ الجرَّة لَكَسْرتُها على قَبْر أبي...، ذلك الأَبُ الّذي بَخل عليَّ بالمال وجادَ عليَّ بالنَّصيحة... كان أوْلى بها!!!



فَلَطَمَ الإبن وَجْهَهُ بِكِلْتا يَدَيْه، وصَرخ مَتَفَجِّعاً باكياً، قائلاً:
- يا وَيْلَتاه... سَمْنٌ ودقيق... وَيأْتي بعد ذلك الْعَسَل!!!،

سلسلة بخلاء الجاحظ

للفتيان

هذا الشبل من ذاك الأسد

"خالد بن يزيد" وولده!!

محمد علي قطب

